

ربوع السودان

يدرك الكثيرون أن السودان يعيش الآن مرحلة تاريخية فاصله في حياته - يجوز تقريبا للمشهد - تصويرها بين نهاية الاستعمار و بداية الإستقلال .. وأن هذه المرحلة هي الخيار الوحيد والأفضل المتاح بعد عدة خيارات أثبتت التجربة عدم قدرتها على حل مشاكله أو عدم في استبطن جذور مأساته .. إنها الفترة الإنتقالية من تفصيل الأدوار و خلط الأوراق الذي ورثناه من الحكم الإستعماري والأنظمة الشمولية إلى التأمل والإستبصار الذي نتمناه من إعادة قراءة التاريخ الوطني المعاصر .. إن السودان كان منقسما جغرافيا - ولكن متصلا وجدانيا في جهاته الأربع - "ربوع السودان"، طوال فترة الحقبين المظلمتين في تاريخه السياسي.

لقد جاء معظم أبناء السودان من الشمال مهاجرين الى العاصمة وهي ليست في الأصل موطننا في الجذور لأحد ومنها انتشروا .. وتفرقوا في الشرق والغرب والجنوب .. وما من أسرة في العاصمة ليست لها جذور في ربوع السودان المختلفة وبالمقابل ليست هناك أسرة في أصقاع السودان ليست لها جذور في العاصمة فهي البوتقة التي انصهرت و تلاقحت فيها كل الثقافات .. وإذا جلست في مناسبة جمعت سودانيين فلا تمضي لحظات إلا وتجد أنهم تعارفوا في الأصل والفصل والمنطقة والقبيلة من أركان السودان الأربعة.

و إذا حدثت نفسى قائلا : (وفي أنفسكم أفلا تنظرون) ، لقد ولدت في مدينة "عطبرة" في المدينة الشمالية وتعلمت الابتدائية في "هيا" مديرية البحر الأحمر والوسطى في "سنجة" مديرية النيل الأزرق .. والثانوية في "حنتوب" منطقة الجزيرة والجامعة في مديرية الخرطوم وعملت في "جوبا" عاصمة المديرية الإستوائية - يعني أكثر من نصف السودان عددا و مساحة - .. وهذا نموذج مصغر للملايين من أبناء السودان .. في وطن المليون ميل مربع .. ولأن هذه المساحة الجغرافية كانت وما زالت سببا كافيا للإحتماء بالمنطقة والإكتفاء بالتوزيع الجغرافي والإكتفاء على القبيلة والأثنية حتى لا تنقطع من الوصل ولا تنبت من الأصل.

فالعاصمة التي ترهلت من فرط تدفق النازحين تحمل في أحشائها شتى أنواع بطاقات الشخصية .. المقصود منها تأكيد الجهة التي جاءت منها الأسرة. وأكبر الأسر من الشرق والغرب والشمال والجنوب تسكن العاصمة القومية .. وأكثر المتمردين على حكومة الوسط هدأت ثورتهم عندما وصلوا الخرطوم .. مركز الدائرة من الأركان الأربعة .. وأذكر في المؤتمر الصحفي للنائب الأول لرئيس الجمهورية رئيس حكومة الجنوب الفريق سلفاكير قال: " لو كنا نريد انفصال الجنوب لما جئنا للخرطوم" ... وأنا عشت طول عمري في الجنوب والذين كانوا يتكلمون عن الانفصال عادوا قبلي وشاركوا في الحكومة في الخرطوم ثم عادوا للجنوب "الغابة" ثم رجعوا الآن .. أي أن المجال المغناطيسي تتحكم فيه بوصلة الخرطوم لأنها كانت العاصمة .. وليست لأنها في الشمال .. وهكذا قدر أم درمان - و لست من بنيتها و إن كنت أحد مواطنيها- . وقد غنى أكبر رموز الفن فيها والأول في برنامج "ما يطلبه المستمعون" من كل أنحاء السودان في إذاعة "هنا أم درمان" الراحل المقيم نقيب الفنانين الأستاذ أحمد المصطفى مرددا:

أنا أم درمان تأمل في وجودي أنا السودان تمثل في ربوعي

أنا ابن الشمال سكنته قلبي.على ابن الجنوب ضلوعي

عودا على بدء... وتحت مظلة الحديث عن غريزة الإنصهار والتأقلم، فالدكتور جستين ياك .. زميلي فى الدراسة وصديق العمر فى كلية الطب جامعه الخرطوم .. كان وزيرا لعاصمة الإقليم الجنوبى فى حكومة نميرى بعد اتفاقية أديس أبابا، وقد قدم لي - بصفة شخصية - خدمات جلية فى افتتاح قسم الطب النفسى بمدينة (كوستى) عام 1974م عندما طلب مني أن أضيف الإقليم الجنوبى إلى إقليم النيل الأبيض فى لافتة القسم المنزوع من دار حزب الأمة آنذاك.. ثم هاجرت أنا إلى الخليج .. وعاد هو إلى صفوف الحركة الشعبية .. وعاد الآن الى حكومة الجنوب بعد اتفاقية السلام (نيفاشا) وزيرا للصحة.. رجاء مراجعة كتاب "رحلتى مع الطب النفسى" قسم الطب النفسى فى مدينة كوستي، ص 65 فى الموقع الإلكتروني الشخصى المشار إليه.

عودا على بدء... إن النظرة المتأنية تؤكد إشكالية الأصل والفرع فى الطرح وليس الفصل والوصل فى الوحدة السياسية أو الجغرافية .. وأكبر تجار الوسط هاجروا من الشمال إلى ربوع السودان ومعظم أثرياء السودان جاءوا من الأرياف الى العاصمة .. وهذه قراءة التاريخ المعاصر..

إن المرحلة الحالية تتطلب قدراً كبيراً من حسن النوايا .. وسعة الأفق ورحابة الصدر والتجرد من الأهواء .. والتفانى فى الأداء على كل الأصعدة الثقافية والإقتصادية والسياسية.. إن حسب إحصائيات البنك الدولى فإن السودان يأتى فى المرتبة الثانية من حيث الموارد الطبيعية بعد أمريكا ويحتاج إلى مائة وخمسين مليون نسمة لتعمير البنية التحتية فى ربوع السودان .. لا القلة التى تتصارع على الأراضى السكنية فى الخطة الإسكانية فى ضواحي الخرطوم حتى أصبحت العاصمة أشبه بأسد السيرك العجوز يتقاطر الناس إليه إعجاباً بأمجاده ورتاء لعجزه فى استيعاب متطلبات العصر.

لقد سمعت فى القناة السودانية مطرباً من أبناء الجنوب يغنى فى "مروى" أغاني "محمد كرم الله" بصورة يصعب أن تميزه عن صاحب الأداء .. متجاوزاً "أزمة الغربية" وحاجز اللغة واللهجة والتنغيم والتطريب، وهي سمات أساسية مكتسبة ودوافع أولية نابعة من القلب والوجدان وهذا دليل الرغبة فى الإنتماء والقدرة على الإنصهار بين السودانيين.

وكثيرون يذكرون البرنامج الإذاعى الأسبوعى المشهور فى حقبة الفن بإسم "ربوع السودان" والذى كان مقدمة الراحل المقيم الشاعر والأديب المبارك إبراهيم .. وكان يستهل شعاره .. المقدمه .. الفنان الراحل محمد عمر الرباطي .. ويقول فيما يقول:

أم در يا ربوع سوداننا نحيك وأنت كل آمالنا.
فى غربك عروس الرمال وفى شرقك آية الجمال.
فى جنوبك واسع مجال ويا حلة رطبك فى الشمال.

والأغنية طويلة تستحق الشرح والإفاضة لنبين النظرة الوجدانية فى الأغنية الشعبية ولو كانت الإذاعة السودانية فى أى مدينة غير (أم درمان) لقليل عنها نفس ما يقال الآن ولكن لا خيار لمن لا يختار .. فقد كان الحكم الإنجليزي يقسم العاصمة القومية .. "المتلثة" الخرطوم الإدارية وبحرى العمالية وأم درمان الوطنية .. وكان لابد ان تقوم بهذا الدور وتحتضن القيادات الوطنية الموجودة فى الأصل والوافدة من الأقاليم .. والفرقة القومية السودانية إبان حكم الفريق عبود .. برعاية اللواء طلعت فريد .. أفرزت ابداعات .. فنانى الجزيرة .. والشمال والشرق وحتى خصوصية الجنوب بعد أن كان الدخول إليه "بتأشيرة المناطق المقفولة" .. ظل يشارك برقصة الكمبالا فى المسرح القومى بالإذاعة والتلفزيون .. وما كان يشغلنا هوس الانفصال الذى جاء مؤخراً كالكابوس

القاتل فى حلم مخيف بفعل فاعل .. وحتى الذين قادوا الحركة كفضيل متمرّد كف عن القتال بحضور "جوزيف لاقو" إلى الخرطوم ومشاركته فى الحكومة وفى الحياة السياسية حتى اليوم.

إننا يجب أن نفتح عيوننا لنرى .. ونرهب آذاننا لنسمع .. ونغسل قلوبنا لنحب هذا الوطن القارة الذى لا يحتمل التفرقة ولا يحتاج إليها لكي يستثمر إمكانياته ويجند طاقاته من أجل مستقبل أفضل.

عندما جاء الفريق عبود الى الحكم فى أول انقلاب عسكري، أظن تعداد السكان كان فى عام 1958 ثمانية ملايين نسمة وميزانية الدولة ثمانية ملايين جنيه سودانى .. أي (ثلاث ثمانيات..أو ثلاثة شرائط) .. رتبة "جاويش فى الجيش السودانى" .. أحد شعارات المعارضة المسودة جدران المنازل فى شارع الحرية. تلك المعارضة التى بدأت تردد "ضيعناك و ضعنا وراك يا عبود".

والآن بعد توقيع اتفاقية السلام ..و دخول لغة المليارات فى ميزانية الدولة وتطوير البنية التحتية .. واكتشاف البترول وكسر العزلة السياسية لابد من العمل بصدق نحو الوحدة الطوعية و الفيدرالية الإتحادية ولكن "بنعم" هنيئه .. أو لا مريحه ..!! و لا إكراه فى الدين، و لافضل لعربى علي عجمى إلا بالتقوى وإن أكرمكم عند الله اتقاكم...

ولنا عودة باذن الله...
دكتور الزين عباس عمارة - أبوظبي